الفصل الثامن
الحروف الأبجدية

بالرغم من تقديري الشديد للتراث المادي، من معابد ومبان وآثار، إلا أن التراث الثقافي اللامادي يستحق أكبر التقدير، يستحق تقديرا يفوق كل ما عاداه من تراث، فقد تزول المباني، كما زيلت أبراج ناطحات السحاب، وقد تزول مبانٍ، زادت مساحتها مساحات البحيرات، ولكن يبقى التراث الثقافي، وتقديري للتراث الثقافي؛ لأنه هو الذي يقود للتراث المادي والتراث الأخلاقي، كثقافة تمتد على مدى الحياة، كثقافة تورث لأجيال وأجيال، تخلق منهم أجيالا، تنشد المثالية في العلاقات والمعاملات.

ولم يكن هناك تراث أقوى تأثيرا من التراث المصري، والثقافة المصرية، لأنه جمع بين التراث المادي المتمثل في مبانيه، ومسلاته التي ناطحت السحاب، في وقت لم يعرف العالم فيه معنى البناء، تراث مادي، يؤصل فكرة العمل الجماعي من علم هندسي، وعلم إنشائي، وعلوم الفيزياء، والفلك، والكيمياء.

تراث جمع كل هذه الأفكار؛ ليوثق عليه كتابة، أو ليوثق عليه سردا لما يجري، ففلسفة التراث المصري أكبر من مجرد بناء، إنها التكاملية في الفكر. الفكر الإنشائي ليتسنى للهواء والضوء الدخول إلى المبنى، والفكر الفني؛ لكي يكون المبنى جميلا بقدر ما يمتع عين الناظر إليه، والفكر الكيميائي؛ ليحتفظ بألوانه في أبهى صورها، والفكر الفلسفي ليجعل من الكتابة،

ليست مجرد كتابة، أو كلمات مكتوبة، ولكن فلسفة الكتابة عند المصري، هي أن يدور حوار بين القارئ والمكتوب، فنجد رسومات الطيور والحيوانات التي تألفت منها الحروف والأفعال تنظر إليك أثناء قراءتها، سواء أقرأتها من اليمين لليسار، أو العكس، كتابة فنية شارك فيها الذوق الراقي؛ لكى تكون من اليمين أو اليسار، من أعلى أو من أسفل، طبقا لما يقودنا إليه التحرك في المبنى، فنجد على يمين المدخل، تكون الكتابة من اليمين إلى اليسار وأوجه حروفه تنظر إليك، وعلى يسار المدخل العكس، بلا أي نوع من الخلل قد يصيب القارئ، فالقراءة سلسة مهما كان اتجاهها.

سجَّل المصري كل شيء، سجَّل حياته، سجَّل قوانينه، عاداته اليومية، أفراحه، وأحزانه، سجَّل عقيدته.

سجل أخلاقه ليرثها الناس على مر السنين.

سجل كلمات حكماؤه التي تساوت في المعان مع آيات وإصحاحات ومزامير في الكتب السماوية[١٢].

وبالطبع استدعى الأمر أن تكون اللغة قوية، أن تكون اللغة قادرة على التعبير عن كل ذلك، قادرة على التعبير عن الماديات واللامايات.

وليس أدل على قوة اللغة المصرية القديمة، أكثر من بقاء رسالتها حتى الآن، أنها باقية حتى وإن لم يكن هناك من

١٢. أنظر فجر الضمير، لجيمس هنرى بريستد.

ينطقها، ولكن رسالتها باقية، ومعلوماتها تصل إلينا، وكل فترة، تزداد تلك المعلومات المرسلة، عبر لغة كتبت على جدران المعابد، لتزينها أخلاقيا، قبل أن تزينها جماليا.

وقد مرَّت اللغة المصرية بسلسلة من التغيرات، بالرغم من إنها لم تكن تغيرات بالمعنى المفهوم، فقد كانت هناك عدة طرق للكتابة، وكلها موجودة في نفس التوقيت، إلا أن استخدام كل نوع من أنواع الكتابة، كان لفئة معينة من الناس: فاللغة الهيروغليفية وهى الأصعب رسما، كانت تستخدم في المعابد، أما ما تم تبسيطه منها، فقد أُستخدم في التعاملات بين العامة، لذا فإننا يمكن أن نقسم اللغة إلى مجموعة من الفروع وهى:

الهيروغليفية:

الهيروغليفية تعنى "النقش المقدس"، والمصطلح كما يستخدمه دارسو نظم الكتابة، يدل على فئة من نظم الكتابة التصويرية، تندرج تحتها الكتابة الهيروغليفية المصرية، ونظم كتابة أخرى، منها المايا، والكتابة الصينية في بداياتها.

وقد ظهرت في العصور المصرية القديمة من بدايتها، قبل بناة الأهرام في العصر العتيق، وحتى نهاية ما يُعرف بالدولة الحديثة، ثم بعد ذلك بدأت بالانقراض، كما إنها لغة فنية، تكتب من اليمين لليسار، أو من اليسار لليمين، أفقى أو رأسي، وهى عبارة عن إشارات تشمل ما في الطبيعة من إنسان، وحيوان، ونبات، وماء، وشمس، وغيرها من الظواهر الطبيعية، كتب

بها المصريون على البرديات، وجدران المعابد، والإهرامات، كُتبت بها النصوص الدينية جميعها، فقد كانت كتابة مقدسة، وكان تعلمها صعبا، لذلك متعلمها والذي كان يسمى كاتب؛ كان يحظى بمنزلة عالية، ورفيعة عند المصريين، كما أن متعلمها أيضا، بعد أن يكون كاتبا، يمكنه أن يرتقى في المناصب؛ حتى يمكن أن يصبح حاكم إقليم أو وزير.

في الاستعمال الشائع تدل الهيروغليفية المصرية على نظام الكتابة الذي استعمل في مصر القديمة لتسجيل اللغة المصرية، والقيام بعمليات الجمع والطرح والحساب. أقدم ما وصلنا مكتوبا بالهيروغليفية، مخطوط رسمي ما بين عامى ٣٣٠٠ قبل الميلاد و ٣٢٠٠ ق.م. في ذلك المخطوط استخدمت صور لترمز إلى أصوات أولية للكلمات، وقد استوحى المصري القديم تلك الصور من الموجودات الشائعة في البيئة المصرية في ذاك الوقت، من نبات وحيوان، وأعضاءها، ومصنوعات بشرية وغيرها. مثل الفم وينطق (رو)، والعين وتنطق (يرى) والثعبان (فاي) ويؤخذ منها الحرف الأول (ف)، والبومة (م)، كما استعملوا رموزا دخلت فيما بعد إلى الكتابة العربية مثل (هـ) و(و) و(ش).

أخذوا أيضا أسماء ذات حرفين للتعبير عن حرفين متتاليين: مثل البيت (بر)، والعرش (ست)، والأرنب (ون). كما استعملوا من بعض الكلمات ثلاثة حروف، مثل: عنخ (ومعناها حياة)، وحتب (ومعناها راضٍ)، ونفرت (ومعناها جميلة)، ونفر (ومعناه جميل).

استعملت الهيروغليفية كنمط كتابة رسمي لتسجيل الأحداث، والنصوص الدينية على جدران المعابد، والمقابر، وأسطح التماثيل، والألواح الحجرية المنقوشة، والألواح الخشبية الملونة، وبسبب طبيعتها كانت تعد منذ القدم نظامًا للكتابة، وفنًا زخرفيًا جميلاً في آن واحد. ومن أهم الكتابات عند المصريين القدماء كتابة أسمائهم، وأسماء الأب والأم والأخوات، لأنهم كانوا يعتقدون إنه للبعث في الحياة الآخرة، لا بد من المحافظة على اسم الشخص إلى جانب المحافظة على جثمانه، وضياع الاسم يعتبر الفناء الكامل. وكانوا يكتبون كذلك وظائفهم بجانب أسمائهم، مثل رئيس الكتاب أمنمحعت، وإذا توفى رئيس الكتاب أمنمحعت مثلا، فكانوا يكتبون اسمه ووظيفته كالآتي: "امير– شس أمنمحعت، ماع خرو" أي رئيس الكتاب أمنمحعت،الصادق في كلامه بمعنى المغفور له.

يعد الخط هيروغليفي هو الأول لكل نظم الكتابة اللاحقة، إذ بنى قوم ساميون، وهم سكان الجزيرة العربية، ومنهم من هاجر إلى الشام، ومنهم من هاجر إلى فلسطين، بنى هؤلاء القوم نظاما أبجديا معتمدا على الخط الهيروغليفي؛ ليمثل أصوات لغتهم، فابتكروا ما يسمى بالخط السيناوى الأولى، الذي استُنبطت منه لاحقا كل نظم الكتابة الأبجدية المعروفة في العالم تقريبًا، البائدة منها والباقية، وعلى رأسها الكتابة اليونانية القديمة، والقبطية، ثم الرومانية، ومنها كتابة اللغات الأوروبية.

إلى جانب النظام الهيروغليفي، وجد نظام كتابة آخر أكثر انسيابا واختزالا، وأيسر في الكتابة اليدوية، هو الخط الهيراطيقى، الذي استخدم لكتابة الوثائق الدينية والطبية والإدارية والعلمية والأدبية، يُعد تطوره مواكبا لتطور الخط الهيروغليفية، وليس منحدرا منه. بينما استنبط الخط الديموطيقى من الهيراطيقى في عصور لاحقة؛ وبعد دخول اليونانيون، مصر واختلاط الثقافتين المصرية واليونانية، استُنبط نظام كتابة آخر لكتابة اللغة القبطية – وهى النمط الذي وصلت إليه اللغة المصرية في تلك الفترة التاريخية – وهذا الخط القبطي مبنى على رموز الأبجدية اليونانية.

الهيراطيقية:

ونظرا لصعوبة الهيروغليفية، وصعوبة تعلمها واستخدامها في الشئون العامة؛ تم اختراع الكتابة الهيراطيقية وهى مشتقة من الهيروغليفية مع تبسيطها بعض الشيء، سميت أيضا الخط الكهنوتي، أي خط رجال الدين؛ لأن الكهنة ورجال الدين هم من استخدموا تلك الكتابة كثيرا في كافة أعمالهم، وتم الكتابة بها على الخزف والخشب، كما أن معظم الكتابات الأدبية للمصريين سُجلت بالهيراطيقية.

الديموطيقية:

سادت بعد انتهاء الدولة الحديثة في عصر الاضمحلال الأخير، لسهولتها عن الهيروغليفية والهيراطيقية، وسُميت أيضا

بالعامية نظرا لانتشارها بين كافة الشعب، وكانت عبارة عن لغتهم الدارجة، ولكنها مكتوبة.

القبطية:

وهى عبارة عن المصرية القديمة مكتوبة بالحروف الإغريقية، وسجل بها رجال الدين المسيحيون كافة كتاباتهم، ونصوصهم الدينية، وسادت تلك اللغة، ومعها العديد من الأبجديات الأخرى، وذلك لتنوع من كانوا يعيشون في مصر في تلك الفترة، فمن الفراعنة، ثم الفرس، والبطالمة، والإغريق، واليونانيون، واليهود، حتى الرومان، فتعددت اللغات والكتابات، فكانت كل كتابة معينة، تسود في عصر معين، وأيضا لكل مجال كتابة، وظهر ذلك الاختلاف والتنوع بوضوح في العصر الروماني، ثم بعد ذلك، تم الفتح الإسلامي لمصر، وبذلك بدأت اللغات الأخرى في الانحسار، حتى سادت العربية، ولكنها لا تعتبر من كتابات مصر القديمة، لأنها لم تسُد إلا في العصور المتقدمة نسبيا.

ولسنا في حاجه لإثبات أن كل اللغات أُشتقت من اللغة المصرية القديمة، ولكن يكفينا مثال واحد لإثبات ما نقول، بالرغم من أنه ليس هناك حاجه للإثبات.

حرف الألف أو الصوت "إيه" يرسم على هيئة طائر النسر المصري في اللغة الهيروغليفية، ونظرا لصعوبة الرسم بالنسبة

للحياة اليومية، فقد تم تبسيطه، والتبسيط لا يكون حذفا أو تغييرا يخل بالشكل الأصلي، ولكن التبسيط يتم على مراحل لتسهيل الكتابة.

فنجد أنه قد تم حذف جزء من رسم النسر المصري بدون الإخلال بمضمونه كنسر، فحذف الأقدام لم يخل بالشكل العام للنسر في شيء، وبالتالي أصبح من السهل التعرف عليه بصفته الرسم الدال على الحرف ألف.

ولكن الشكل مازال صعبا للعامة، لذا فقد تم إزالة بعض أجزاء أخرى من الشكل ليصبح على ما هو في الشكل المقابل، ولكنه مازال يدل على نفس النطق "أيه" ونفس الحرف ألف.

ويأتي التبسيط من أجل سرعة الكتابة، ليتم إزالة أجزاء أخرى.

a

أما التبسيط في هذه المرحلة، فهو لم يكن بهدف سهولة الكتابة، أو سرعتها، ولكن بهدف الطباعة، ليصبح حرف الألف المعروف عالميا، أو الصوت "إيه".

وما حدث من حرف الألف، قد حدث مع باقي الحروف، لتكون لغتي هي اللغة الأم على مستوى الأمم، ولأكون أنا من علمت الناس الكتابة، فمن حقى أن أقول:

أنا مصري، وعلمت الكون كيف يتعلم.